

المتزام الطريقة الجاهلية في المقدمات المطلية.

إن من يستنطق أشعار السوقيين سيجد بكثرة هذا النوع من الشعر الذي المتزم فيه أصحابه المنهج الجاهلي المتزاما يصل إلى حد المغالاة وصار ذلك عندهم واجبا لابد أن تطعم به القصائد ويضمخ به هيكل الشعر. اعتقادا منهم أن تلك المطلليات هي بمثابة همزة وصل بين شعرهم والشعر العربي العتيق. حتى إنهم استعملوا النسب سواء في القصائد التي الغرض منها التعبير عن عاطفة الحب الخالص. وصادق الغرام، أو التي كان النسب فيها مجرد مقدمة وتمهيد إلى موضوع القصيدة، وليس تعبيرا شعوريا صادقا. ويستوقفنا موضوع له أهميته عند تناول الغزل حيث إن الغالبية من الأدباء والشعراء قد يستعملون النسب في بعض قصائد هم بدافع الإيمان بالطريقة التقليدية المتبعة، لدى لفيظ من الشعراء المولدين ومن أتى بعدهم. وهي وضع مقدمة غزلية بين يدي الموضوع الذي قيلت من أجله القصيدة، وليس شعراؤنا بدعا من غيرهم، فهناك من فطاحلة الشعراء من يرى نفس الرأي ولم يشذ عنه غير المشاعر أبي نواس والذي رأى ضرورة التحرر من القيود التي تحمل شعار التقليد المحض للأسلوب الجاهلي داعيا إلى الرجوع إلى الطبع واستبدال وصف الأطلال بما يمليه على المشاعر حسه المباشر قائلا:

بداغة المقدم فاجعل صفاتك لينة المكرم

الطلول على السماع بها أفذو العيان كآنت في الحكم

متبعا لم تخل من خطأ ومن وهم

ويرى ابن رشيقي أن الواجب تجنب التقليد لاسيما إذا كان الممدوح في بلد المادح ويراه في أكثر أوقاته، فما أقبح ذكر الفلاة والمناقة حينئذ.)

وقد وجدت هذه الدعوة آذانا صاغية لدى الغالبية الساحقة من الكتاب والنقاد في هذا العصر. ويصمون هذه الطريقة القديمة التي يحشر فيها الغزل والمدح والمفخر في قصيدة واحدة بعدم صدق عاطفة قائلها، وعدم الوحدة العضوية والموضوعية في شعره ولذا شك أن الأدب السوقي ما هو إلا صورة طبق أصلية للنموذج الجاهلي القديم. ولكنهم مع ذلك لهم تميز في صدق عاطفتهم العقديّة بعيدين عن الطابع العام في العصر الجاهلي. والذي طغى فيه طلب المتعة، ومرضاة الشباب وإشباع اللذات الحياتية. في عهد الصبا وكانوا أيضا بعيدين عن الأوصاف المادية المغربية والخلوات المرعبة والمغامرات الغرامية التي ولع بها امرؤ القيس وغيره من الشعراء.

يعد الغزل عند الشعراء السوقيين معبرا وليس هدفا لذاته ويعود فضل ذلك إلى التميز الديني. والذي لا يرضى بتلك المتجاوزات المخطئة على حساب الدين والخلق الإسلامي النقي فحالهم أشبه بحال المشاعر الأندلسي القائل:

لكذاك الروض ما فيه لم تالي ... سوي نظر وشم من متاع

ولست من المسوائم مهمات ... فأتخذ المرياض من المراع

واختاروا لشعرهم أن يكون برزخا بين اللفظ الجاهلي الغليظ الجزل وبين الأسلوب الإسلامي السهل.

يقول الشيخ الشاعر عبد القادر بن محمد المصالح الكنتي السوقي ضمن قصيدة إخوانية أرسلها إلى ابن عمه الشيخ الفتى بن محمد أحمد الكنتي:

ظبي أقام الحسن في أماته ما جازه إلى عماته

فانشقت الأصداف أصداف المبهات عنه فضاع الدر بعد نشاته

ما إن ترى خمرا كخمر رضابه كلكا ولما تمرا كتمر لثاته

سيان دري العقود وتغره في المنظم لافي كل ماهياته

كالغصن قدا كالغزال تلفتا كالبرق في المظلماء في بسماته

من نغماته والمسك من نغماته نغماته

والقوس من نواته والمليل من حدقاته والمحور من أخواته

يصميك قبل الرمي إنما أنه بلحاظه يصميك ثا بقناته

فأعجب له يدمي القلوب ولم يكن إدماءه الأجساد من آفاته

يسطو على روجي على كلفي به روجي المضاء لروحه ولذاته

فصرب كاسات الغرام حياته كمماته ومماته كحياته

وما دام نطوف على ساحات الغزل السوقي فإلى الحديقة الوديقة للأديب الشاعر الشيخ محمد الحاج بن محمد أحمد المادري السوقي وهي من إحدى بحايح الواحة الغزلية السوقية أطلقت علينا رائية وهي من عيون الشعر وهي:

لمعناك في فكري ومغناك في صدري وسر هوائك في الجوانح كالجمر

قضى لي قاضي الوجود أني متيم فللغرب إرسال الغروب إلى النحر

وللب تشنيت ولم يبق غيرما يميز بينها وبينها القفر

على مثلها يبكي وإن ليم عاشق ولو كان قلبه أصم من المصخر

فليدات وصلها على الدهر فضلت كما فضلت عن شهرها ليلة المقدر

وما الصبر إن حاولته بعد فرقتي لمربعها لما أمر من الصبر
 مهارة لها جيد المهارة وحاجب كنوان وفوق ذونه غرة البدر
 وطرف سقيم كالسنان لعاشق كنوان له فتكات كالهزير أبي أجر
 وفرع أثيث فاحم مترا سسل كأن الدجى تكسوه برد إلى الفجر
 وغرشتيت أشنب إن لمحتته حسبت وميض المبرق من ذلك الثغر
 وما المشهد لما ريقة من لذاتها وما المسك لما من معاطسها يجري
 ممنعة يسري إلي خيالها ولو قدرت تعوقه لم يكد يسري
 تبدت لنا يوم المواع فأبرزت بنانا خضيبا من دم القلب والسحر
 فقلت لها ماذا الخضاب الذي بها فقلت دم من عاشق لي في أسر
 فقلت لها أنا العشوق دواءه لديك فقلت لي أدويه بالمهجر
 لها إذن فديته فموته شهيد هو أشهى إليه من الخمر
 فقلت وهل أرضى من العشق ربية وما المغدر في دين المصباية من دهر أي من عادتي
 فقلت لها متى اللقاء؟ فأعرضت دلا لنا وقلت لنا ولكن إلى الحشر
 ومن ذلك قصيدة للشاعر المفلح محمد بن يوسف الإدريسي يقول فيها:
 جهلا يظفي بصب الصباية زند وجد تذكبه كف المصباية
 واهتاج ما قد توارى في حشاه حاشاه يظفي المتهاية
 الطرف سقما أو دعته إذ ودعته الكآبه
 يك صبح جبين متلال من تحت ليل الذؤابه
 إلى قوله:

ولت فالوت برخص أوجب الميث أن لمحت خضابه
 كالمبدر ما بين بيض كالداري تحكي انسياق المسحابه
 خلفها دعص رمل تتشكى عند النهوض انجذابه
 اظها السحر هارو ت وماروت والسهام الإصابه

الممدوح

يعد الممدوح من أوسع ميادين الأغراض الشعرية. فقلما تجد شاعرا لما وقد ضرب فيه بسهم. واتصل بالممدوح بسبب سواء في المجال
 المتكسبي، أوفي المجالات الأخرى.

ومما لاشك فيه أن الممدوح اتسع نطاقه بشكل أكبر عند شعراء الإسلام أكثر من شعراء الجاهلية. لأن الإسلام جمع بين الصفات التي
 استعملها الجاهليون. ومدحوا بها. إلى صفات أخرى انبثقت من الإسلام نفسه دعا إليها القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة، التي
 بعث صاحبها عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الأخلاق.

قال الشيخ محمود بن محمد المصالح الإدريسي السوقي في قصيدة إخوانية أجاب بها الشيخ العلامة المحمود بن الشيخ حماد
 الإدريسي السوقي رحم الله الجميع ومطلعها:

أيها المشادن المرهوب سائنه أستودع الله قصرا أنت سائنه
 شغل عما تزود لنا من الحديث بما صحت أسائنه
 وافت أناشدمن بدر الكمال سبت قسرا فؤادي عما أنت ناشده
 أغارده كالزهر باسمه إلي فأنبت في قلبي مواجده
 وبعد أبيات في مدح قصيدة الممدوح وهي محل المشاهد.

سميه إجلا ما إن نسقت أو صافه نم باسمه محامده
 بود والمجد والإنصاف إخوته والبر والبذل والإحسان والمده
 ذهبه والعلم مطلبه والموجد سائنه والزهيد قائده
 يس والسرد للآثار صيدته إذا اعتنى باصطياد المال صائده
 يكن جمعه الأموال عادته فالفرق والمفقر للمولى عوائده
 مطبوع على كرم مقبل في المندى واليأس ساعده
 در الدجى أنوار غرته إذا امتطى مجلس التدريس عاقده
 يص بتحقيق يدققه فكر تبين دعواه شواهدده
 هذه الدعوى مجردة عن البيان فهذه قصائده
 عجماء أعجمت عربيا بل أفحمت فزهير الشعر حاسده

به النحل لما تعد إن جرت ██████████ أزاهر القول ██████████ منحاشا ██████████ أوأبده
 طيبا ██████████ غدقا ██████████ من صدره صيبا تشفي ██████████ عصادده
 عسلا من لفظه ██████████ عكلا ██████████ لما شفى عكلا في الحال ██████████ بارده
 من نار ██████████ فطنته ██████████ يحمى ليصفو ██████████ بالتذويب ██████████ جامده
 يجب لصدروحواهم ██████████ مااحترقت ██████████ له البواني ██████████ ولم يلفح ██████████ مقاعده
 وهذه قطعة من شعر الشيخ المحمود الذي يجيب عنه قال بعد تغزل طويل ونزيه وهي
 وضبت إلى (محمود) ██████████ ملتجئا ██████████ فنعم ملجأ من ضاقت مقاصده
 مل ██████████ ديباجا ██████████ وشائنه ██████████ بردا من الدم حد ██████████ المسيف سارده
 صعدت في الجو ██████████ رتبته ██████████ فكيف يلحقها غير ██████████ يماجده
 كفيه بدرات اللجين ██████████ ولما ██████████ يشقى معاشره ولما ██████████ مقاعده
 مكره ██████████ ويأمنه ██████████ في الناس آمله ومن ██████████ يعاضده
 منذ كان العلم ██████████ دينته ██████████ غيظا وتملا دائما ██████████ موائده
 عشائره ██████████ عشاره وجدوده ██████████ عساجده
 كن في العلم ██████████ أبدة ██████████ لإاوابدها ██████████ في المفع ██████████ صائده
 أشبعت أوله ██████████ وفهت بالمباء ██████████ مكسورا ██████████ فعابده
 بسجد بالليل البهيم ██████████ إلى ██████████ أن أدميت من سجوده ██████████ مساجده
 فيه المشهد ██████████ معتلق ██████████ به ويمتص ██████████ فيه المصاب حاسده

ثم يحضر جواد فكره المثاقب في معمعان معان جميلة، اكتست بحق ملاحف البيان، وسحبت ذيل النسيان على سحبان في وصف قصيدة مساجله محمود فقال:

بـقـافـيـة ██████████ من كل ماملكت ██████████ فيها ██████████ مقاصده
 على ضامر من المقراطس ل█████████ يعيى وإن جد في ██████████ التسيارقائده
 ██████████ من الممداد بلا ██████████ ظمئ ██████████ يكا بده
 الدراعي ██████████ محاسنها ██████████ لاحتار واختار أن تمحى ██████████ قصائده
 بل ██████████ يستكن به ██████████ شنخوب معنى حديد المفهم صاعده
 داوى ██████████ مضمناها ██████████ موصول داء، ضمير الموجد ██████████ عائدته

وهنا نعود فنقول:

إن المدح عند شعراء وأدباء السوقيين لم يتحرر من قيود محاكاة القدماء من الشعراء ولم يقدروا على أن يضربوا معاني المدح في قوالبهم الخاصة، وبالتالي لم تتبين شخصيتهم فيه، وظلت الأوصاف والمعاني هي نفسها التي استعملت في شعر الأولين. ولكن يبقى تأكيد ما سبق طرحه في غير ما مناسبة أن التيار الإسلامي هو الذي يهيمن على أوصاف المدح لدى شعرائنا، وبلغ من قوة هذا التيار أن الأسماء يجرون فيها عملية اشتقاقية تنطلق منها روافد أوصاف تصب في نفس الاتجاه ولأصدق في ذلك من قول المحمود في ممدوحه محمود:

فإن أشبعت أوله ██████████ وفهت (بالمباء) مكسورا ██████████ فعابده

ويدلنا هذا بجلاء إلى قضية أخرى وهي أن المدح لدى أدبائنا له طابع ألب وهو الموصف الديني فهو صاحب صدارة ومكانة لاتخفى. ومفردات هذا القاموس هو نفسه الذي استعمله الأديب الشاعر المرتضى بن محمد الإدريسي السوقي في قصيدته الفائية التي ساجل بها محمد بن يوسف الإدريسي السوقي فقال:

يفان ██████████ إن ██████████ عاجوا به ██████████ فإذا فعلت ██████████ فشأنه ██████████ والمشارفا
 على كرم ██████████ وحسبك ██████████ بامرء ██████████ أن لايجمم ██████████ تالدا ██████████ أو طارفا
 بول ██████████ وسعيه ██████████ يذر المرجا ██████████ المأمول ██████████ نيلا ██████████ آرضا
 وإذا احتبى بين ██████████ الدأمائل ██████████ خلته ██████████ بدرا سوى ██████████ أن لايكون ██████████ المكاسفا
 نار المرا ██████████ ألفيته ██████████ طلق المحيا ██████████ ساكتا ██████████ لالحا لفا
 وسيرة ██████████ الزهاد ██████████ في ██████████ ضبط ██████████ ينازهه الكبير ██████████ المدالفا
 و ██████████ الذي أحى الليلي ██████████ ساهرا ██████████ من خشية المولى ██████████ فأصبح واقفا
 ██████████ أو ساجدا ██████████ أو داعيا ██████████ وخلال ██████████ ذلك الدمع ██████████ يجري ذارفا
 ██████████ للسيادة ██████████ والنهى ██████████ والحزم ██████████ والمفهم السليم ██████████ مصارفا
 ██████████ فلما ██████████ جئته ██████████ صادفته ██████████ البحر ██████████ المخضم ██████████ الدراجفا
 ██████████ الفطن الذكي ██████████ المعابد ال ██████████ وروغ ██████████ المتقي ██████████ الفاظمي ██████████ المعارفا

ولاشك أن هذه الأوصاف ليست من أجل الاستهلاك المجرد كلا فقد أريد لها أن تضي بعدا دينيا لهذا المدح فهو يعرف من يصفه، ويعرف من يقرؤون له، مما يعني أنه يعتقد جازما أن مدح المؤمن الحق هو التحلي بهذه الخلال التي وصف بها قرينه محمد وما يضره مافات بعد أن تكون هذه الأوصاف حاضرة، ولما ينفع ماسواها لو كانت هي الغائبة.

وقال الشاعر محمد بن يوسف الإدريسي السوقي يمدح الشاعر إغلس بن محمد بن اليماني الإدريسي السوقي ضمن قصيدته التي وجهها إليه تجاوبا مع النصيحة التي واجه بها الشباب السوقي في قصيدته :

ت نماني ابن اليماني ومن تطب مغارسه يطب بقطيب المغارس
على الرق كفه بالمرق أقر له بالمرق بالمرق كل ممارس
المقواضي شئى بها بمضمار سبق كل قرن منافس
علم بلاغة بميدانها استتلى بها كل فارس
المقول يوما فثق به ولما تبحتن عما تحرى ابن عابس
في راحتيه فردهما سحائب عشر كم جلت بؤس بائس
قطر الندى وبنا الردى على الود والمضد المعادي المغامس
نتبر كاسميها فادر ما هما إذا اغبرت الآفاق في فصل مارس
عن رشد وحض محرضا على المدرس والتدريس غير مدالس
غفوة غفلة بوعد بليغ كل وسان ذاعس
هو البدر والمجهل حنسد وفي البدر تما جلوة للحنادس

ونقتطع من بعض قصائد محمد بن يوسف الإدريسي السوقي التي وجهها إلى الشيخ محمد الحاج بن محمد أحمد الأدرعي السوقي والتي تعد آخر المساجلة الشعرية التي جرت بينهما ما يتعلق بالمدح حيث تخلص من المقدمة الغزلية ووصف النوق فقال بعد التلخيص :

بدورا يوم مسألة حتى لمسكنة بالمطول مهمومه
ل يستغلي مرأجه سودا مكتكتة بالمكتر موكومه
لين شأو بعيد الشأو ليس له صوغ وصيغته ليست بمذومه
يستنتج المشرذنها غير معتقم يوما إذا اعتاصت الأذنهان معقومه
تقاعت مزابرا شناتره قاعت له فقرا في الرق منظومه
برج الموشي إنشاء بعارضة في المنسج الماهرة ليست بمسئومه
ما اسود كاعده لما استضاء بما عنه انطوى شذرا بالمسك مرسومه
له من نفاذات منعلة عن صوغ أمثالها المصغاة مشكومه
كم له من سباتك مرصعة مسموطة في سلوك الذهن مرمومه
وكم توشت على منوال عارضة له الملاوى يد التمعين مرقومه
وكم ترست إلى أن أدهشت وغدت رجلاه في أخريات الليل موصومه
بحر الوجه مبتهلا لله مستعبرا عيناه كالديمه
يأمل عضو الله منتصبا في كل داجية دجياء مظلومه
مداركه تعيي ذوي همم بالحزم محزومه
دائك حوكا يحبره من نسج فك بديع الموشي موسومه

ومن نماذج المدح ما قاله الشاعر إنيكوا بن أمية الأنصاري السوقي قالها في الثناء على امرأة من الطوارق، قامت مقام الرجال في حسن المضيافة، وضربت في الكرم أروع الأمثال، فاثارت سحابة فكر شاعرنا فسحت قريحته بودق من المعاني ينساب الجمال من خلالها، ويخيم الثناء تحت ظلالها ويقال إن تلك الدرّة المصونة، واللؤلؤة المكونة لما وصل إليها ركب الشيخ عمدت إلى ذاقه لها فنحرتها، وبأعمدة خيمتها فشبت بها النار، حبا في الكمال وخوف العار، واليك الأبيات وهي:

جرى من بنت أحمد (دوش) صنع تقاصر دونه هم المر جال
أرت من نفسها عجا عجا يدل على المروعة والكمال
أتينا حيا لينا فقالت حياة المحي في نحر الجمال
فساقت ذاقه عشا وشدت قوائمه بأطراف الحبال
فأنفذت المقاتل وهي ترنو لمصرعها ولكن لنا تبالسي
فما لبثت لنا أن قدمتها بواد من وقود النار خال
فتاه الراكب في عجب وشكر آيات جرت في ضيق حال
إذا ماشام برق المجد شخص تحمل ضاحكا ببيض الجبال

وإن كرمت طباع المرء كادت كادته صنائعه تعد من المحال
وينظر روجه لحياة أخرى ويسخو بالمطافل والمتال
فتلك خلائق منعت لبعض وتعطاهن ربوات المحجـال
وتلك كريمة الأتواج (هتو) مجددة المكارم والمعـال

ويدور في هذا الفلك قصيدة أرسلها الشاعر محمد إغلس إلى بعض نساء حيه والمتي لامتته على عدم ذكره لها في شعره علما بأن شعره كان على كل لسان ويبدو أن السوقيات شأنهن في ذلك شأن غيرهن من نساء العرب في اهتزازهن وافتخارهن بنبوغ شاعر القبيلة لأنه هو المحامي في المستقبل عن كرامتهن وهو الذي يخلد أمجاد القبيلة عبر شعره فهذا معروف مأدوف، وقصيدته هي:

عم لب لداتها فاصيب هتون المدمع في عرصاتها
من شررتشم توى على لضعاتها وأجب حمائمها ولاتعبأ بمن
هضباتها لولما مخافة أن يقال مجنن لأجبت في جناتها
هاجاتها

ت بسماتها عن سرها المكنون في بسماتها
دهم الدجى بمثال مااستقبست من وجناتها
وثقه المروي أن الملاحظة من مزيد صفاتها
ن طينة (قرشية) ظهرت ذرى طبقاتها
ماشابهها عرق تشابه بعدها لكن لياب سراتها لسراتها
بوش جرثوم المناقب جلها شيخ الأباطح من حماة حماتها
من والد الحسنين ينبوع المهدي من لانتازه كمة كمتها

ثم ذكر أن مالها من المحرمات لا يحفظه لها غير البلد الحرام الذي هاجرت إليه مع مرعاته المحسنات المبدعية بشكل لاضت.
خطفتها مغناطيس عليا فانتحت حرمان مكة لا تقا حرمانها
أفضت بها من بعد ما عرفت هنا عرفاتها (لمنى) إلى عرفاتها
لا بدع أن تنوى بمكة أو ترى حولاً لطيبة تجتني بركاتها
منها مهاجرها لها في حجر من خضت لسطوته أباة أباتها
ياوجهة إن لم أمت كلفتها إبلي أو اهلك ذاهجا نهجاتها
إن لم يكن بدني مزيد سوادها فسواد قلبي في حمى حوماتها
شعر الحكمة عندهم.

ومن الملاحظ أيضا في شعرهم ضالة شعر الحكمة إذا قسناها بالفخر أو المدح مثلا، وإن وجدت في شعر الرثاء، فهو الذي نشهد فيه للحكمة حضورا مميذا، ونراهم يطرقون أساليب في الرثاء تتجلى فيها الحكمة، بوضوح، أما ما سواه من الأغراض الأخرى، فتمر علينا الحكمة مبنوثة في ثنايا القصيدة بأسلوب غير منتظم، لم تأخذ فيه الحكمة حيزا طبيعيا، ولم تتبوأ مكانتها المرجوة من شعر غريق في تقليد الجاهليين، عريق في البداوة، ومعلوم أن الشعراء الجاهليين لا يخلو شعرهم من الحكمة بل يندر وجود قصيدة واحدة من قصائدهم، إلا وتجد فيها حضورا للحكمة، وما شعر زهير عنا ببعيد.

وبستنى من ذلك بعض الشعر الذي يحمل طابعا وعظيا، أو الذي يأتي لغرض العبرة وغالبا ما ذرى هذا النوع في الرثاء كما سبق إيضاحه، ولعلي أتناول ذلك بصورة أوضح عند الكلام عن الرثاء.